التّجلّيات الجماليّة للمأساويّ في الشّعر الأندلسيّ في عصر الدّولة الأمويّة (مأساة السّجن نموذجًا)

د. قاسم القحطانيّ
قسم اللّغة العربيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الفرات

الملخّص

يتناول هذا البحثُ عرضَ مفهوم المأساويّ في الشّعر الأندلسيّ في عصر الدّولة الأمويّة من خلال رصده واحدةً من المآسي الّتي عاشها الشّاعر الأندلسيّ، وهي مأساة السّجن.

وهو يسعى وراء ما تكشفه النّصوص الشّعريّة الأندلسيّة من براعة الشّاعر في تطويع المادّة الشّعريّة لإمكاناته التّعبيريّة الخلاّقة، وذلك بالنّظر إلى أثر الفنّ في إعادة إنتاج المشكلات بوعي أكثر استبصارًا بالواقع، إذ إنّ التّمثيل الجماليّ للمأساويّ يكشف عن الفجوة الهائلة بين عالَمَيْن لا ينتمي أحدهما إلى الآخر، عالم من الحرّيّة، وعالم من القيد. ومن هنا جاء التّركيز على أثر الشّعر في مواجهة السّلطة الأندلسيّة المستبدّة في عهدي الدّولة العامريّة والفتنة البربريّة، الّتي لا جدوى من الحوار معها.

الكلمات المفتاحيّة: المأساويّ، السّجن، الشّعر الأندلسيّ، الدّولة الأمويّة.

- **المقدّمة:**

تجلّت في الشّعر الأندلسيّ مجموعةٌ من القيم الجماليّة، من أبرزها: الجميل والجليل والبطوليّ والمأساويّ والهَزْليّ والمُعذّب. وعبّر الشّعر عن هذه القيم من خلال نظام بنائيّ جماليّ مميّز انسجم وطبيعة تلك القيم. وقد بُني احتفاءُ الشّعر الأندلسيّ بالمأساويّ (التّراجيديّ) عبر ثلاث حالات، تمثّلت بتجسيده للموت والسّجن والسّقوط (سقوط قرطبة). وهذه الحالات الثّلاث تُغني تجربة الشّاعر الإبداعيّة، في مُستويي الشّكل والمضمون.

وإذ يتوضّح المأساويّ مع نموذج السّجن أكثر من غيره، فإنّ البحث يسعى إلى الكشف عن براعة الشّاعر في تطويع المادّة الشّعريّة لإمكاناته التّعبيريّة الخلاّقة، في تعريته أسباب المأساة وآثارها فيه، الّتي دعا الشّاعر إلى الاجتراء عليها، بوصفها محظوراتٍ تعمل على تقزيم الإنسان وقهره، ومنعه من القيام بواجبه في الحياة.

- **في المنظور الجماليّ للمأساويّ:**

المأساةُ أو (التّراجيديا) هي كلُّ ما يثير فينا الشّفقةَ والحزنَ، والأعمالُ الفنّيّةُ التّراجيديّةُ ضرورةٌ مهمّةٌ للنّاس، لأنّها تطهّر الكاتبَ حين يبدعها، والمتلقّيَ حين يشاهدها، أو يتلقّاها بصيغة معيّنة، ولا سيّما إذا تقاطعت مع جوانب من مشكلاته المكبوتة.

التّراجيديّ مصطلح جماليّ مبنيّ من حيث المفهوم، على كلّ ما له علاقة بالمأساة، ويقابله المأساويّ، وهو يشكّلُ، بعد تحوّله من المفهوم إلى القيمة، أحدَ الموضوعات الأثيرة التي تستهوي المبدعين. لذلك فالتّراجيديّ يعدّ من أبرز مظاهر الإبداع الأساسيّة في الفنّ إلى جانب الجميل والجليل والبطوليّ والهزليّ والمُعذّب.

وللحضور التّراجيديّ المميّز في العمل الفنّيّ أسبابٌ كثيرةٌ، منها ما يتمثّل في فَقْد الجميل الّذي يولّد غالبًا شعورًا مأساويًّا بمستوًى معيّنٍ لدى المبدع الّذي يجسّده في عمله الفنّيّ تعبيرًا أو تصويرًا.

لذلك فالمأساويُّ (التّراجيديّ)، في الفنّ، قيمةٌ جماليّةٌ تعني التّعبير عن المأساة بسبب انعكاس حدث معيّن على المبدع يجسّده عادةً من خلال الصّورة الفنّيّة، أو بوسائل أخرى.

وعلم الجمال يتناول المأساويّ (التراجيديّ) بوصفه مفهومًا جماليًّا حُوّل إلى قيمة في العمل الإبداعيّ. وهو لذلك يدرس المأساويَّ (التراجيديّ) في الفنّ من خلال مستويين: قيمة المأساويّ (التّراجيديّ) الّتي تحوّلت من الفكرة المجرّدة إلى الإحساس الذّاتيّ المُصاغ صياغة فنّيّة، وملامحها، وعلاقتها بالقيم الأخرى. والشّكل الفنّيّ الذي

جسّد المبدع موضوعَه فيه، ومدى انعكاس المحتوى المأساويّ (التّراجيديّ) وتغلغله ضمن هذا الشّكل الفنّيّ.

والواقع أنّ الاهتمام الحديث بالمأساويّ، بوصفه مقولةً مهمّةً وأساسيّةً من مقولات علم الجمال، جاء لأسباب فنيّة خاصّة، فقد كان لدخوله إلى الشّعر فضلٌ في انتقال الشّعر من الذّاتيّة إلى الدّراميّة, الّتي تقوم على الصّراع وتعدّد الأصوات, وابتعاده عن الفرديّة الذّاتيّة, إذ «إنّ بناء نموذج فنّيّ تراجيديّ يتطلّب تقنيّة فنّيّة خاصّة به, وهي التّقنيّة الدّراميّة, حيث يتحوّل الشّعر من الغنائيّة الذّاتيّة الصّرفة إلى الغنائيّة الدّراميّة, إنّ صحّ التّعبير, ومن دون ذلك يصعب إنتاج نموذج تراجيديّ متكامل, وذلك بسبب أهمّيّة الصّراع في التّراجيديّ»[1].

والجدير ذكره أنّ الانتباه إلى أهمّيّة المأساويّ في الفنّ أعاد النّظر في الكيفيّة الّتي يتمّ من خلالها الوعي بأهمّيّة الأثر التّربويّ له، إذ لم يعد مشروطًا بتقديم المَثل الأعلى، وإنّما أخذ يحتفي بالموضوعات القبيحة والمنفّرة لِما لها من أثر في خلق ردّة فعل عكسيّة، قَوامُها الرّفض والبحث عن واقع بديل.

- مأساة السّجن في الشّعر الأندلسيّ في عصر الدّولة الأمويّة:

أعطى الشّعر الأندلسيّ في عصر الدّولة الأمويّة مساحةً واسعةً لمأساة السّجن في نصوصه، حتّى لا يمكن لنا أن نقرأ هذا الشّعر من دون الاهتمام بهذا الجانب. وجاء تركيز النّصوص على تصوير مأساة السّجن انعكاسًا طبيعيًّا للحياة السّياسيّة والاجتماعيّة الّتي عاشها الأندلسيّون في عهدين كانا أكثر العهود الّتي قاسى فيها النّاس مرارةَ السّجن.

كان عهد الحاجب المنصور (ت392هـ)، واحدًا من هذين العهدين، استطاع فيه أن يُحكم قبضته الحديديّة على مقاليد الحُكم في زمن الخليفة هشام المؤيّد بن الحَكم، فشهد هذا العهد استبدادًا وسيطرة واسعة[2]، وكان حافلاً بتصفية الخصوم[3]، فقد أوقع المنصور بعشرة شعراء سَجنَهم انتقامًا منهم وبطشًا بهم[4].

وتأتي المرحلة اللاّحقة وهي مرحلة الفتنة البربريّة في قرطبة الّتي شهدت فوضى سياسيّة كبيرة، إذ قام بأمر قرطبة عبدُ الرّحمن (ت399هـ)[5] وهو ابنُ الحاجب

---

(1) كليب: القيم الجماليّة، ص238.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 407/2.

(3) نعنعي: تاريخ الدّولة الأمويّة، ص22، وما بعدها.

(4) انظر: الخطيب: تجربة السّجن في الشعر الأندلسيّ، ص58-59، محمّد: الشّعر في قرطبة، 369.

(5) ابن سعيد: المغرب، 213/1.

المنصور، فزاد حنق النّاس على العامريّين، ووجدوها فرصة للقيام عليهم، فخلعوا الخليفة الأمويّ هشام المؤيّد، وبايعوا محمّد بن هشام بن عبد الجبّار بن النّاصر [6].

واضطربت أمورُ الحُكم واستمرّت هذه الحال عشرين سنةً تقريبًا لحق قرطبةَ فيها التّخريبُ والتّدمير. وكان أُولو الأمر فيها يعملون على القضاء على خصومهم بشتّى الوسائل كالسّجن والاعتقال حينًا، والقتل والتّنكيل حينًا آخر. وأوردت المصادرُ حوادثَ اعتقال عدد من الشّخصيات، وكان منهم الشّعراء، الّذين نالهم ما نال غيرهم في غمار الفتنة[7]، «لا لأنّهم كانوا دائمًا في صفوف المعارضة، وإنّما لأنّ الشّاعر كان في الوقت نفسه شخصيّة سياسيّة، يصيبه ما يصيب رجل السّياسة عند تقلّب الأوضاع واصطدام المطامع المتباينة، واضطراب حبال الأهواء من حال إلى حال في فترات متقاربة، والأمثلة على ذلك كثيرة»[8].

وتجلّت مأساة السّجن في أشعار السُّجناء الشّعراء في هاتين المرحلتين، فقد عانوا من وطأتها وذاقوا مرارتها، ورسخت في وعي كلّ واحد منهم، فعبّروا عنها بوضوح من خلال صور فنّيّة دقيقة، بلغة معبّرة موحية.

- تبدّل أحوال السّجناء:

وقد تعدّدت الأسبابُ الّتي دعت إلى وجود عدد من الشّعراء الأندلسيّين في السّجن[9]، ووجد هؤلاء أنفسَهم في قلب المأساة الّتي بدّلت أحوالَهم من العزّ إلى الذّلّ، ومن العظمة إلى المهانة، وهذه مصيبة كبرى، فمأساة السّجن شديدة الوقع على أمثال هؤلاء الّذين كانت لهم مكانة مرموقة في المجتمع الأندلسيّ، ثمّ أذاقهم الزّمانُ الهوانَ بعد العزّة. ومن هؤلاء الحاجب المُصحفيّ (ت372هـ)[10]، الّذي سجنه المنصور انتقامًا منه عندما وصل إلى الحُكْم، فتجرّع في سجنه كؤوسَ الذُّلّ والمَهانة، الّتي سقاه إيّاها المنصورُ، فقال في يأسه وذلّه الّذي آل إليه[11]: (من الطّويل)

صَبرتُ عَلى الأيّام لَمّا تَولَّتِ وأَلْزمتُ نفسِي صَبرَها فَاستمرّتِ

(6) ابن عذاري: البيان المغرب، 38/3.

(7) الخطيب: تجربة السّجن، ص59–61، ومحمّد: الشّعر في قرطبة، ص388.

(8) عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ (عصر سيادة قرطبة)، ص100.

(9) الخطيب: تجربة السّجن، ص32، وما بعدها، ومحمّد: الشّعر في قرطبة، ص369.

(10) الحاجب المصحفيّ: أبو الحسن، جعفر بن عثمان، وزير أديب شاعر كاتب أندلسيّ، تقلد المناصب في أيام الحكم المستنصر، ثم صار حاجبا لابنه هشام من بعده. انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص187–188، وابن خاقان: مطمح الأنفس، ص156–166، وابن عذاري: البيان المغرب، 565/2.

(11) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص156–157، وابن عذاري: البيان المغرب، 270/2.

فَـوا عَجبًـا للقلــبِ كيـفَ اعترافُــهُ ولِلـنّفسِ بعـدَ العـزِّ كيـفَ اسـتذلّتِ؟!
ومـا الـنّفسُ إلاّ حيـثُ يجعلُهـا الفتـى فــإنْ طمعـــتْ تاقــتْ وإلاّ تَســـلّتِ
وكانــتْ علــى الأيّــام نفسِــي عزيــزةً فلمّــا رأتْ صــبرِي علــى الــذّلّ ذلّــتِ
فقُلتُ لهـا: يـا نفـسُ مُـوتي كريمـةً فقــدْ كانــتِ الــدُّنيا لَنــا ثُــمَّ وَلّــتِ

حاول الشّاعر أن يتحلّى بالصّبر، فهو الملاذ الوحيد الّذي وجد فيه عزاءَه بعد أن دارت عليه دوائر الأيّام، وأحسّ أنّ الصّبر قاسٍ على قلبه، وعلى نفسه، الّتي ذلّت بعد عزّ، وعلى الرّغم ممّا أحسّ به من ألم في أعماقه، فضّل أن يعيش ويموت أبيَّ النّفس كريمًا، لأنّ مصير الإنسان دائمًا هكذا، يوم يُسرُّ ويوم آخر يُحزن، والأيّام دول.

وصوّر الأمير الأمويّ الشّريف الطّليق (نحو400هـ)[12]، أثرَ مأساة السّجن فيه، إذ أمضى ستّةَ عشرَ عامًا من عمره وراء قضبان السّجن، لأنّه قتل أباه من أجل جارية كان يحبّها، ووجدها معه، وعاش همَّ سنوات سجنه حتّى تسرّب الشّيبُ إلى رأسه، فقال في صورة جميلة[13]: (من البسيط)

وَشّتْ يدُ الدّهرِ رأسِي بالمَشيبِ أسًى فــي غيهــبٍ بســناءِ الصُّــبح موشــيّ
فَـدَبَّ فيــهِ دَبيــبَ النّــارِ فــي فحـم ينفــي دُجــاه بلــونٍ غيــرِ منفــيّ
كأنّـــهُ بمَشيـــبِي حـــينَ كتَّبهـــا صــــحيفةٌ كَتبتْهـــا كـــفُّ أُمّـــيّ

وهذه الصّورة الجميلة الّتي رسمها للشّيب في أثر المأساة فيه تبيّن سوءَ حاله، بل إنّه صار على يقين أنّ الزّمان ترك النّاسَ أجمعين وتفرّغ له ولم يجد غيرَه يشتغل به، ويهدي إليه مصائبَه[14]: (من الطّويل)

تفـرّغَ لــي دهـرِي فصـيّرنِي شُــغلاَ وعوّضنِي مِنْ خصبِ روضتِيَ المَحلا
يطالـــبُ بالثّـــأرِ النّبيـــلِ كأنّمـــا يــرى النّبـلَ منــهُ بَـينَ أحشـائِهِ نَـبْلا

وكأنّ الشّريف الطّليق الّذي قضى في سجنه ثلثَ حياته[15]، قد يئس من الخلاص فكانت المأساة تتجدّد عليه كلّ يوم لأنّه لا يرقب لها نهاية قريبة، فكأنّ الزّمان لا يريد أن يمنّ عليه بالفرج، فرماه في ثقل القيود وضيق المكان. وتتّضح

([12]) الشّريف الطّليق: أبو عبد الملك، مروان بن عبد الرّحمن بن مروان بن عبد الرّحمن النّاصر، أمير أمويّ، كان أديبًا شاعرًا مكثرًا. انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص342–343، والضبي: بغية الملتمس، 613/2–614، وابن الأبار: الحلة السيراء، 220/1، وابن سعيد: المغرب، 402/1.

([13]) الشريف الطّليق: الدّيوان، ص84.

([14]) الشريف الطّليق: الدّيوان، ص84.

([15]) أشار الضبّيّ إلى أنّه «سُجن وهو ابن ستّ عشرة سنة، ومكث في السّجن ستّ عشرة سنة، وعاش بعد إطلاقه من السّجن ستّ عشرة سنة». الضبّيّ: بغية الملتمس، 613/2.

صورة المعاناة الّتي عاناها في مأساته من قوله في عيد مرّ عليه هناك[16]: (من الطّويل)

لقدْ هيّجَ الأضحى لنفسِي جَوى أَسًى كَرِيـهُ المَنايا مِنـهُ لِلـنَّفْسِ أَرْوَحُ
كأنّ بعينِي حَلْقَ كلِّ ذبيحةٍ بـهِ، وبصدرِي قلبُها حينَ تذبحُ

إنّه لا يسرّ في سجنه بقدوم عيد ولا بغيره من الأيّام، وهو يحمل في صدره عذاب كائنات الأرض جميعها، حتّى حين تذبح الأضاحي ابتهاجًا بيوم العيد فكأنّ قلوبها النّازفة تسكن قلبه، فالألم مستمرّ ومتجدّد في ظلال القيود خلف القضبان.

وكان الشّاعر أبو الأصبغ عبد العزيز بن الخطيب[17]، واحدًا من الّذين ألقى بهم المنصورُ في غياهب السّجن، بعد أن أمر بضربه خمسمَئةِ سوط، لأنّه قال أبياتًا ألّه فيها المنصورَ، فرأى أبو الأصبغ سجنَه عائقًا ومانعًا له من المشاركة في أيّ نشاط آخر، فقد اعتذر ليوم مهرجان مرّ عليه وهو في السّجن غير قادر على المشاركة فيه، منعتْهُ من ذلك قيودُه الّتي يتقلّب فيها، ولو سنحت له الفرصة في المشاركة لكان له قصب السّبق على الجميع[18]: (من الوافر)

رويدَكَ أيُها الشَّوقُ المُذكِّي لنارِ صبابتِي بالمهرجانِ
لقدْ أذكرتَ منِّي غيرَ ناسٍ وهجتَ ليَ الصّبابةَ غيرَ وانِ[19]
أيومَ المهرجانِ اعذرْ فحالِي تراها في البلاءِ كما تراني
ولوْ لَمْ يَثْنِنِي طبقٌ وقيدٌ لرحتُ، وقِيدَ لي قصبُ الرّهانِ

كذلك أسهم سجن بعض الشّعراء في زمن الفتنة البربريّة (399–421هـ) في أماكن بعيدة عن أوطانهم في إذكاء شعور الغربتين النّفسيّة والمكانيّة في السّجن، فزاد الهمُّ والذّلُّ والعذابُ، وإلى هذا أشار ابن شُهيد (ت425هـ)[20]، الّذي نَكَبَه المعتلي يحيى ابن حمّود (ت427هـ)، لمّا حكمَ قرطبةَ في زمن الفتنة، نتيجةَ سعايات ضدّه، فقال[21]: (من الطّويل)

---

(16) الشّريف الطّليق: الدّيوان، ص75.

(17) عبد العزيز بن الخطيب: أبو الأصبغ، أديب شاعر، كان مقدّمًا عند الحاجب المنصور. انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص288–289، والضبي: بغية الملتمس، 500/2.

(18) الحميديّ: جذوة المقتبس، ص288–289، والضبي: بغية الملتمس، 500/2.

(19) الواني: تارك الشّيء ومهمله.

(20) ابن شُهيد: أبو عامر، أحمد بن عبد الملك. انظر: الحُميديّ: جذوة المقتبس، ص131–132، رقم320، وابن بسّام: الذّخيرة، ق1، م1، ص191، وما بعدها، وابن الأبار: الحلة السيراء، 237/1.

(21) ابن شُهيد: الدّيوان، ص100–101.

فــراقٌ وســجنٌ واشــتياقٌ وذلّــةٌ وجبّــارُ حُفّــاظٍ علــيّ عتيــدُ[22]
ولســتُ بــذِي قيــدٍ يــرنُّ وإنّمــا علــيّ مــنْ ســخطِ الإمــام قيــودُ

إنّ ابن شهيد لا يرى من مصيره في السّجن إلاّ أنّه يحمل معانيَ الفراق والاشتياق، والذّلّ والرّقابة الدّائمة. ومع أنّه لم يُقيّد، وهذا نوع من الامتياز للسّجين أو نوع من تخفيف وطأة السّجن عن كاهله، إلاّ أنّ هذا الامتياز لم يكن يعني له شيئًا وهو مسلوب الحرّيّة.

وكانت وطأةُ الفتنة على ابن حزم (ت456هـ)[23] ثقيلةً، ، عاش همّها وعذابها، وألقت به في غياهب السّجون، لأنّه كان مواليًا للأمويّين، فسجنه العامريّون، ثمّ أُطلِق والتحق من جديد بأمير أمويّ أخفق في استعادة الخلافة الأمويّة في زمن الفتنة، فسُجن ابنُ حزم ثانيةً. ووصف مأساتَه بما فيها من غربة وذلّ، فقال[24]: (من البسيط)

مُســهّدُ القلــبِ فــي خدّيــهِ أدمعُــهُ قــدْ طالمــا شــرقتْ بالوَجــدِ أضــلعُهُ
دانــي الهُمــوم بعيــدُ الــدّارِ نازِحُهــا رجــعُ الأنــينِ ســكيبُ الــدّمع مفزعُــهُ
يــأوِي إلــى زفــراتٍ لــوْ يُباشــرُها قاســي الحديــدِ فواقًــا ذابَ أجمعُــهُ
تجــولُ حلّتُــهُ فــي ذاتِــه فتَــرى آثــارَ مــا الــدَّهرُ بــالأحرارِ يصــنعُهُ؟
جســـمٌ تخوّنـــتِ الأيّـــامُ جثّتَـــهُ فعـــادَ كَالشّـــنِّ مَـــرآهُ ومَســـمعُهُ

وبهذا يتبيّن أنّ حديث السّجناء عن مأساتهم كان متعلّقًا بموضوع الكلام على تغيّر الزّمان وتبدّل الأحوال، من الغنى إلى الفقر، ومن العزّ إلى الذّلّ. وهذا يصوّر لنا وقع هذه المصيبة الكبرى عليهم وكيف تعاملوا معها، فمنهم مَنِ استمرّ في صبره على نوائب الدّهر، ومنهم مَنْ لم يرجُ خلاصًا، فرثى نفسه وبكاها في سجنه.

- **عذاب السّجن وآلام القَيْد:**

وتناول هؤلاء الشّعراءُ في حديثهم عن مأساة السّجن الّتي تعرّضوا لها، وَصْفَ المكان الّذي سُجنوا فيه، ذلك المكان المظلم الرّطب الّذي يناقض تمامًا العالم الرّحب المضيء الّذي كانوا يعيشون فيه، وكان الانتقالُ من هذا العالم إلى عالم السّجن

(22) العتيد: الحاضر المُهيّأ.
(23) ابن حزم: أبو محمّد، علي بن أحمد بن سعيد، الإمام الظاهريّ، كان حافظًا وعالمًا بعلوم الحديث واللّغة، وشاعرًا مجيدًا، ولي الوزارة مرّات، وكانت تربطه بابن شهيد صداقة حميمة. انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص308–311، وابن بسام: الذخيرة، ق1، م1، ص167–175.
(24) ابن حزم: الديوان، ص69.

المظلم الرّهيب صدمةً قويّةً أخذت من الشّاعر كلَّ مأخذ، وهزّته هزّةً عنيفة وضعته على أرض الواقع المؤلم، الّذي تتجسّد فيه صورُ القهر والعذاب والبؤس.

ونجد الشّاعر الشّريف الطّليق يتحدّث عن ظلم الدّهر وظلام السّجن المخيّم عليه، ويقارن بينه وبين قصر الزّهراء المُضاء ليلًا، حتّى كأنّ السّجنَ بظلامه الحبرُ الأسود في دواة بيضاء من العاج، إذ قال[25]: (من الكامل)

فــي منــزلٍ كاللّيــلِ أســودَ فــاحم   داجــي النّــواحي مظلــم الأثبــاج[26]

يســـودُّ والزّهـــراءُ تشـــرقُ حولَـــهُ   كـــالحبرِ أُودِعَ فـــي دَواةِ العـــاج

إنّ الزّهراء المشرقة باتت بديلًا لِما هو مفقود في حياة الشّاعر، فهي تحمل معاني السّيادة والحرّيّة، في حين أنّ السّجن هو المكان الّذي صار الشّاعر إليه، وهو يحمل معاني القهر والظّلم وتقييد الحرّيّة، فبات من المسلّم به أن يقارن بين المكانين.

فهذه الصّورة التي تحمل النّقيضين تعطينا فكرةً عن المعاناة الّتي كان يعيشها الشّريف الطّليق. ولم تكن معاناةُ البجّانيّ (ت400هـ)[27] في سجنه في المطبق بأقلَّ من معاناة الشّريف الطّليق، فقد نزل منزلًا ضيقًّا كأنّه القبر، ألقاه فيه المنصور لأنّه قُرِفَ بالرّهَق في دِينه ونُسب إلى الزّندقة، فقال معبّرًا عن معاناته[28]: (من البسيط)

فـي منـزلٍ مثـلِ ضـيقِ القبـرِ أوسـعُهُ   دخلتُـهُ فحسـبْتُ الأرضَ تهـوِي بِـي

فالسّجنُ المظلمُ المحفورُ في الأرض قبرٌ رطبٌ ضيّقٌ لا هواء فيه ولا نور، تدبّ فيه الهوامّ، وتسير فيه الحشرات، فتزيد في رهبة السّجن وقسوته، وتجعل السّجناء يعيشون حالة مستمرّة من الرّعب والخوف.

ومن السّجون ما كان فوق الأرض، بل فوق برج عالٍ، ومع ذلك فإنّه ليس بأحسن من ذلك المطمور في باطن الأرض، وكان الشّاعر عبد الملك بن إدريس الجَزيريّ (ت394هـ)[29] واحدًا ممّن سُجنوا في طرطوشة في سجن عالٍ، «فبقي هنالك

(25) الطّليق: الدّيوان، ص71.

(26) الأثباج: جمع مفرده (الثَّبَج)، وهو وسطُ الشّيء ومعظمُه.

(27) البجّانيّ: أبو عبد الله، محمد بن مسعود، أصله من بجانة وسكن قرطبة، كان كثير الشعر. انظر: ابن بسام: الذخيرة، ق1، م1، ص562–565، وابن سعيد: المغرب، 191/2.

(28) ابن بسّام: الذخيرة، ق1، م1، ص564.

(29) الجزيريّ: أبو مروان، عبد الملك بن إدريس، أحد كتّاب الدّولة العامريّة، ووزير من وزرائها، عالم أديب، وشاعر له أشعار ورسائل، قتله المظفّر بن المنصور. انظر: الحميديّ: جذوة المقتبس، ص280–281، وابن خاقان: مطمح الأنفس، ص177–180، وابن بسّام: الذّخيرة، ق4، م1، ص46–52.

معتقلاً في برج من أبراجها نائي المُنتهى، كأنّما يُناجي السُّها»[30]، سَجنَه فيه المنصورُ لأمرٍ عَتَبَ فيه عليه، فوصف هذا المعتقلَ العاليَ، فقال[31]: (من الكامل)

فـي رأسِ أجـردَ شـاهقِ عـالي الـذُّرا   مـا بعـدَهُ لِمُوجِّـدٍ مِـنْ معمـرِ
يـأوِي إليـهِ كـلُّ أعـورَ ناعـبٍ   وتهـبُّ فيـهِ كـلُّ ريـح صرصـرِ[32]
ويكـادُ مَـنْ يَرقـى إليـهِ مـرَّةً   فـي عمـرِهِ، يشـكو انقطـاعَ الأبهـرِ
فكـأنّ معمـورَ المنـازلِ حولَـهُ   ضـيقًا وإظلامًـا ملاحـدُ مَقْبَـرِ

إنّه سجينٌ في مكان عالٍ لا تأتيه إلاّ الغربان النّاعبة، أو الرّياح الشّديدة، ومَنْ صعد إليه مرّة فلن يصعد إليه مرّة أخرى، وسوءُ حالة الشّاعر النّفسية جعله يرى المنازل العامرة المحيطة بسجنه ضيّقةً مظلمةً كأنّها قبور.

وكما صوّر الشّعراءُ ضيقَ السّجن وارتفاعه، وصفوا وحشةَ هذا المكان ووحدة الإنسان فيه، ومنهم ابنُ شُهيد الّذي قال[33]: (من الطّويل)

فَمَـنْ مُبلِـغ الفِتيـان أنّـيَ بعـدَهُمْ   مقـيمٌ بـدارِ الظّـالمينَ وحيـدُ
مقـيمٌ بـدارِ سـاكنُوها مِـنَ الأذى   قيـامٌ علـى جمـرِ الحِمـام قُعـودُ
ويُسـمَعُ للحَيّـاتِ فـي جَنباتِهـا   بسـيطٌ كتَرجيـعِ الصّـدى ونشـيدُ
ومـا اهتـزَّ بـابُ السّـجنِ إلاّ تفطّـرَتْ   قلـوبٌ لَنـا خـوفَ الـرّدى وكُبـودُ

نجد في هذه الأبيات إحساسَ الشّاعر الغارق في الوحشة، الّتي يلفّها به سجنُه في ذلك المكان، ففيه من ضروب التّعذيب والخوف والأذى شيءٌ كثيرٌ.

وظلّت صورة القبر ملازمةً السّجن، راسخةً في وعي الشّاعر السّجين، لتؤكّد أنّه ليس بأحسن من قبر، وأنّ مَنْ فيه أحياءٌ وليسوا أمواتًا، كما قال ابن حزم[34]: (من البسيط)

أمْ كيـفَ حالـةُ حـيّ سـاكنِ جـدثًا   يرنـو بعـينِ أسـيرِ عـزَّ مطمعُـهُ؟
قدْ طـالَ فـي هاويـاتِ السّـجنِ محبسُـهُ   وانشـتّ مـنْ شـملِهِ مـا كـانَ يجمعُـهُ

إنّه السّجن مكان موحش ضيّق يؤذي النّفس ويجعل للحياة لونًا قاتمًا يناقض لون الحرّيّة، أمّا مكانه فتحت الأرض أو في الأبراج العالية، رغبةً في قطع السّجين

---

(30) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص178.
(31) الجزيريّ: قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس، ص48–49.
(32) الأعور: الغراب.
(33) ابن شهيد: الدّيوان، ص100.
(34) ابن حزم: الدّيوان، ص70.

عن العالم، أمّا شكله فمنيع وثيق الإغلاق على السّجناء، زيادةً في انقطاع السّجناء عن العالم.

وعانى السّجناء كثيرًا من القيد ووصفوه في أشعارهم بأوصاف متعدّدة، حتّى صار رمزًا للعذاب والذّلّ الّذي يقاسيه المسجون. قال الشّريف الطّليق في كَبْله وقيوده، الّتي تشبه حيوانًا ينقضّ عليه ويفترسه[35]: (من الطّويل)

كأنَّ زمانِي فوقَ ساقِيَ قابضٌ ليقصرَ باعِي عنْ عُلا كلِّ مطلبِ

فَمِنْ زُبَرِ الأقيادِ مَدٌّ بساعدٍ ومِنْ حَلقاتِ الكَبْلِ شَدٌّ بمخلبِ[36]

إنّ القيد يؤذيه ويمنعه من الحركة والتّنقّل، وهو يسبّب الأذى النّفسيّ والجسديّ للشّاعر، وكأنّه حيوان مفترس يعضّ ساقيه.

وصوّر ابنُ حزم حالةَ السّجين الّذي سلبته المصائبُ مباهجَ الدّنيا ومحاسنَها، وألقَتْ به في غياهب السّجن مقيّدًا، فلم يجد مَنْ يشكو إليه مصيبتَه إلاّ قيدَه، فقال[37]: (من البسيط)

تَناهبَتْ نوبُ الدُّنيا محاسنَهُ فالضَّيمُ ملبسُهُ والسّجنُ موضعُهُ

يشكُو إلى القيدِ ما يلقاهُ مِنْ أَلَمِ فبِالأنينِ لدى شَكواه يرجعُهُ

يا هاجعًا والرّزايا لا تؤرّقُهُ قُلْ كيفَ يهجعُ مَنْ في الكَبْلِ مهجعُهُ؟

فكَمْ زفيرِ يقدُّ الصّخرَ أيسرُهُ وكمْ أنينِ بنارِ الوجدِ يشفعُهُ! [38]

سُلب الشّاعر محاسن الدّنيا في سجنه هذا، وكأنّ تلازمًا بينه وبين القيد أنشأ بينهما صداقةً وألفةً، جعلتاه يشكو إليه همّه في محبسه، فكان القيدُ هو الخصم والحكم.

- **استعطاف السّجّان:**

وشغل موضوع الاستعطاف حيّزًا من أشعار السّجناء، الّذين توجّهوا بشعرهم إلى الحُكّام وأصحاب النّفوذ الّذين تسبّبوا بسجنهم، لنيل العفو وطلب الصّفح.

ومن أشهر الشّعراء الّذين دارت أشعارُهم في السّجن حول الاستعطاف الحاجبُ المُصحفيّ جعفرُ بن عثمان، الّذي نَكَبَه الحاجبُ المنصورُ، عندما أحكم

(35) الطّليق: الدّيوان، ص84.

(36) الكَبْل: القيْد أو أعظمه، وجمعُه (الكُبُول).

(37) ابن حزم: الدّيوان، ص70.

(38) قدّ الشّيء: قَطعَه.

قبضته على زمام الأمور في الدّولة، وراح يتخلّص من خصومه المنافسين له، في سبيل أن يخلوَ له الجوّ، وكان من هؤلاء الحاجبُ المُصحفيُّ.

وفي أشعار المُصحفيّ ما يعبّر عن قمّة انكساره واستسلامه لسجّانه، وهذا يدلّ على أنّ نفسَه وصلت في يأسها إلى الحضيض، ولم يزل يتذلّل للمنصور ويستعطفه بأشعاره الّتي ظلّ يقولها، حتّى يئس في النّهاية من العفو، ومن ذلك قولُه مستعطفًا[39]: (من المتقارب)

عَفــا اللهُ عنــكَ ألا رحمــة تَجــودُ بعفــوِكَ إنْ أبعــدَا
لــئنْ جــلَّ ذنــبٌ ولــمْ أعتمــدْهُ فأنــتَ أجــلُّ وأعلــى يــدَا
ألــمْ تــرَ عبــدًا عــدا طــورَهُ ومــولًى عَفــا، ورَشــيدًا هَــدى؟
ومُفســدَ أمــرِ تلافَيْتَــهُ فعــادَ فأصلــحَ مــا أفْسَــدا
أقلْنِــي أقالَــكَ مَــنْ لــمْ يــزلْ يقيــكَ ويصــرفُ عنــكَ الــرّدى

ويبدو المصحفيُّ في هذه الأبيات خاضعًا ذليلًا مُقرًّا بذنبه، غايته الخلاص من سجنه، غير أنّ هذا كلّه لم يُلن قلب المنصور، فازدادت معاناته ومأساته، وتوجّه إليه بأبيات أخرى لعلّها تثير فيه الشّفقة والعطف على شيخوخته، فقال[40]: (من البسيط)

هَبْنِـي أسـأتُ فـأينَ الفَضـلُ والكـرمُ؟ إذْ قـادني نحـوَكَ الإذعـانُ والنّـدمُ
يـا خيـرَ مَـنْ مُـدَّتِ الأيـدي إليـهِ أَمـا ترثـي لشـيخ نعـاهُ عنـدَكَ القلـمُ؟
بالغتَ في السّخطِ، فاصفحْ صفحَ مقتدرِ إنَّ الملـوكَ إذا مـا اسـتُرحِموا رَحِمُـوا

ولم تجد هذه الأبيات طريقها إلى قلب المنصور، وغارت صرخاتُه في وادٍ سحيق، فلم يصفح المنصور عنه، بل زادته غضبًا عليه، حتّى بات من الواضح أنّ نهايته المأساويّة ستكون في هذا السّجن، وهو في أقصى حالات التّذلّل والخضوع.

ومثله في الإلحاح في الطّلب الشّاعر قاسم بن محمّد المعروف بالشّبانسيّ (ت430هـ)[41]، الّذي سجنه المنصور لأنّه «قُرِف وشُهِد عليه عند القُضاة بما يوجب القتل، فسُجِن»[42]، فاستعطف المنصورَ بأبيات كانت سببًا في العفو عنه، وألحّ كثيرًا

(39) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص159–160، وابن عذاري: البيان المغرب، 268/2.

(40) الذّخيرة: ابن بسّام، ق4، م1، ص69، وابن الأبّار: الحلّة السّيراء، 265/1.

(41) الشّبانسيّ: أبو محمّد، قاسم بن محمّد القرشيّ المروانيّ المعروف بالشّبانِسيّ، شاعر أديب في الدّولة العامريّة. انظر: الحميديّ: جذوة المقتبس، ص329–330، والضبّيّ: بغية الملتمس، 588/2–589.

(42) الحميديّ: جذوة المقتبس، ص329. قرف: اتّهم. (الفيروزآباديّ: القاموس المحيط، مادّة: ق ر ف).

في طلب العفو، وسأل المنصورَ قبل الحُكم عليه أن يتثبّت في أمره، وأن ينظر في صدق الاتّهام الّذي رُمي به، فقال[43]: (من الكامل)

يـا مَـنْ بِرُحمـاهُ اسـتغثتُ وحـقَّ لـي — مِنَ الغِياثِ عُـلاكَ، استرْ علـيَّ دَمِـي
لا أبتغـي فيــهِ سِــوى سـننِ الهُـدى — غرضًــا، وأقضـيةِ الكتــابِ المُحكَــم
ناشـــدْتُكَ اللهَ العظـــيمَ وحقّـــهَ — فـــي عبـــدِكَ المُتوسّـــلِ المُتحـــرّم
بوســائلِ المــدح المُعــادِ نشـيدُها — فــي كـلِّ مجمـع موكـبٍ أوْ مَوْسـم
لا يُسْـــتَبَحْ منـــهُ حِمًـــى أَرْعاكَـــهُ — يــا مَـنْ يُـرى فــي اللهِ أحمـى مُحـتم

وقد يرسل السّجينُ استعطافَه عن طريق شفيع، يتوسّط بينه وبين الحاكم، كما فعل عبدُ الله بن عبد العزيز المعروف بالحَجَر (ت393هـ)[44]، حين سَجَنه المنصور بالمُطبق إذ ظفر به، لتآمره مع ابنه عبد الله في الوثوب على المنصور، فقال يستشفع بالمظفّر عبد الملك (ت399هـ) إلى أبيه[45]: (من المتدارك)

ألاَ أيُّهـــا الحاجـــبُ المُرتَجـــى — وأكـــرمُ مَـــنْ كـــانَ أوْ مَـــنْ يكـــون
دعوتُـــــكَ دعـــــوةَ مستصـــــرخ — أحاطـــتْ بـــهِ وأثخنتْـــهُ المَنـــون
فـــإنْ لـــم تُغثْنِـــي فمَـــنْ ذا الـــذِي — يلـــوذُ بـــهِ الخـــائفُ المُســـتكين؟
وإنْ جـــلَّ ذنبِـــي فأنـــتَ الجليـــلُ — وهـــلْ لـــكَ فـــيمَنْ عليهـــا قَـــرين؟

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من مبالغة واضحة، وهي تدلّ دلالة واضحة على شخصيّة صاحبها، وتملّقه المظفّرَ عبدَ الملك، سعيًا منه لإطلاق سراحه.

أمّا الشّاعر ابن شُهيد فكان مواليًا للأمويّين لكنّه لم يحظَ بعلاقة طيّبة مع الحموديّين في زمن الفتنة البربريّة في قرطبة فسُجن، ووَجّه إلى حاكمُ قرطبةَ سليمانُ المُعتلي من سجنه قصيدةً طويلةً يشرح فيها حالَه ومأساتَه في السّجن، ويمدحه في سياق استعطافه واعتذاره إليه، فقال[46]: (من الطّويل)

قريـــبٌ بِمُحتـــلِّ الهـــوانِ بعيـــدُ — يجـــودُ ويشـــكو حزنَـــهُ فيُجيـــدُ
نَعـى ضُـرَّهُ عنـدَ الإمـام فَيـا لَـهُ — عـــدوٌّ لأبنـــاءِ الكِـــرام حســـودُ

---

(43) الحميديّ: جذوة المقتبس، ص330.

(44) الحَجَر: هو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز المروانيّ المعروف بالحَجر، من أولاد الحكم الرّبضيّ، وكان أديبًا شاعرًا. انظر: الحميديّ: جذوة المقتبس، 263، والضبيّ: بغية الملتمس، 2/449–450.

(45) ابن الأبّار: الحلّة السّيراء، 1/219.

(46) ابن شهيد: الدّيوان، ص99.

وفي آخرها قال[47]:

وراضــتْ صِــعابِي سـطوةٌ علويّــةٌ لهــا بــارقٌ نحــوَ النّــدى ورُعــودُ
تقـولُ التـي مِـنْ بيتِهـا خـفَّ مركبِـي أَقُربُـــكَ دانٍ، أمْ نـــواكَ بعيـــدُ؟
فقلتُ لها: أمرِي إلى الذي سَمَتْ بهِ إلــى المَجـــدِ آبــاءٌ لـــهُ وجـــدودُ

– الحنين إلى الماضي والشّوق إلى الأهل:

في ظلمة السّجن تذكّر السّجينُ أيّامَه الماضيةَ الجميلةَ، أيّامَ الحرّيّة والذّكريات الحلوة، فسكن إلى تلك الذّكريات يقبس منها جذوةً تنير له حاضرَه، وقوّةً تُعينه على تحمّل ما وصل إليه في مأساته.

وفي حديث شعراء السّجون عن الذّكريات، نجدهم يقفون موقفًا واحدًا، ذلك أنّهم يتحدّثون عن حاضرهم التّعس المؤلم ومصيرهم غير المحمود، وفي ظلّ وصف المعاناة والمأساة الّتي حلّت بهم، نجدهم يلتفتون إلى الماضي، فتتداعى صورُه أمامهم زاهيةً مشرقةً، صورُ اللّهو واللّعب، وصورُ المتعة والسّرور.

ويبدأ الشّاعرُ السّجينُ حديثَ ذكرياته بالمقارنة بين حاضره المؤلم وماضيه السّعيد ويتمنّى عودته، ويتشبّث ببارقة أمل قد تُعيده إليه، فالمُصحفيُّ اليائسُ من خلاصه، المعذّبُ في سجنه تذكّر تلك الأيّامَ الجميلةَ الّتي غفلت عنها عين الزّمان، فقال[48]: (من الطّويل)

فَلِلَّـــهِ أيّـــامٌ مضـــتْ لســـبيلها فـــإنّيَ لا أنســـى لَهـــا أبـــدًا ذِكــرَا
تجافَـتْ بِهـا عنَّـا الحـوادثُ بُرهــةً وأبـدتْ لَنـا منهـا الطَّلاقــةَ والبِشــرَا
ليـــالِيَ لــمْ يــدرِ الزَّمـــانُ مكانَنَـــا ولا نظـــرتْ منَّـــا حوادثـــهُ شـــزرَا

تحسّر المصحفيُّ على تلك الأيّام الّتي انقضت في غفلة من عين الزّمان، فعاشها بالسّعادة الّتي ظنّها لا تنتهي، حتّى قَلبَ له الزّمانُ ظهرَ المجنّ، فألقاه في محنة عظيمة لا يحسده عليها حاسدٌ.

والأهلُ والأحبابُ جزءٌ من معالم الماضي الجميل، وفي حديث الذّكريات في أشعار السّجناء نصيبٌ لهم، لأنّ فيهم أملًا يتجدّد، وتعزيةً تواسي القلبَ المجروحَ، فما إن وصل كتابُ أهل المصحفيّ إليه حتّى أعلن عن حنينه إلى أنفاسهم الّتي يتنفّسونها، فهي تبعث الحياةَ في نفسه، فقال[49]: (من الطّويل)

---

(47) ابن شهيد: الدّيوان، ص101–102.

(48) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص161.

(49) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص166.

أَحِـــنُّ إلـــى أنفاسِـــكُم فأظنُّهـــا　　بواعـثَ أنفـاسِ الحيـاةِ إلـى نَفْسِـي
وإنّ زمانًـــا صـــرتُ فيـــهِ مُقيّـــدًا　　لأثقـلُ مـنْ رَضـوى وأضـيقُ مـنْ

وارتبط شعرُ السّجن بالحنين إلى الدّيار، ويظهر ذلك عند أبي الأصبغ عيسى ابن الحسن[51] وكان واحدًا من الّذين سجنَهم الحاجبُ المنصورُ لتأييده ابنَه في الخروج على طاعته وحُكمه، فله مقطوعةٌ شكا فيها حالَه في داخل السّجن، وحنّ إلى دياره، قال فيها[52]: (من الخفيف)

ليتَ شِعري كيفَ البلادُ؟ وكيفَ الـ　　إنـــسُ والـــوحشُ والسَّـــما والمـــاءُ؟
طـالَ عهـدي عـنْ كـلِّ ذاكَ ولَيلـي　　ونَهـــاري فـــي مُقلتَـــيَّ سَـــواءُ
لـــيسَ حَظِّـــي مـــنَ البسـيطةِ إلاَّ　　قـــدرَ قبـــرٍ صـــبيحةٌ أو مســـاءُ
وإذا مـــا جنحـــتُ فيـــهِ لأُنْـــسٍ　　أوحشَـــتْني بأُنسِـــها الأغبيـــاءُ

عاش أبو الأصبغ حالةَ تبرُّم وقلق، فهو في سجنه الّذي أبعده عن بلاده بسمائها ومائها، وإنسها ووحشها، وما يزيد تبرّمه أنّ هذا المكان الضيّق المحدود يجمعُه بعدد من السّجناء الأغبياء الّذين لم يعتدْ معاشرتَهم من قبل، وما يزعجه أنّه يخالطهم مضطرًّا.

والشّوقُ في نفس السّجين شديدٌ جدًّا لأهله وأصحابه، لأنّه انتُزِع منهم انتزاعًا، وأُلقي به في حياة الوحدة الموحشة، ويمثّل هذا ما قاله عبد الملك بن إدريس الجزيريّ، الّذي لا يذكر في قصيدته الرّائيّة المشهورة الّتي قالها في سجنه، إلاّ مأساتَه الّتي تضاعفت ببُعْده عن أولاده، فوجّه إليهم قصيدتَه، وخاطب فيها ابنَه الأكبرَ وطلب إليه أن يبلغ تحيّاته إلى سائر إخوته، فقال[53]: (من الكامل)

يـا عابِـدَ الـرَّحمنِ جُنِّبْـتَ الأسـى　　كَمْ مِنْ أسًى لكَ في الجوانح مُضْمَرِ
تَتقطَّـــعُ الصُّـــعداءُ أنفاسِـــي بِـــهِ　　وبفَـيضِ أجفـاني وإنْ لـمْ أشـعرِ
أبلـــغْ عُبيـــدَ اللهِ صـــنوَكَ أنَّنـــي　　لفراقِـــهِ كالسَّـــادرِ المُتَحَيّـــرِ
عِلْقـي النَّفِيس الخطـر أفديـهِ مِنَ الـ　　ـخطبِ المُلِـمّ بكـلِّ عِلْـقٍ مُخْطِـرِ

([50]) رَضوى: جبلٌ بالمدينة المنوّرة. (الحمويّ: معجم البلدان، 51/3).

([51]) أبو الأصبغ: عيسى بن الحسن، أحد شعراء الدّولة العامريّة، أيّد عبدَ الله بن المنصور للقيام على أبيه، فلمّا ضرب المنصورُ عنقَ ابنه سَجَنَ أبا الأصبغ هذا. انظر: ابن بسّام: الذّخيرة، ق2، م1، ص377.

([52]) ابن سعيد: المغرب، 212/1.

([53]) الجزيريّ: قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريّ، ص47–48.

ومُحَمَّـــــــــدًا للهِ دَرُّ مُحَمَّـــــــــدٍ زهــرٌ تَفــتّحَ غِــبَّ مُــزنٍ مُمْطِــرِ [54]

تجرّع هذا الشّاعرُ مرارةَ الأسى والحزن وهو في سجنه في حالة من الوحدة والعزلة، وقد ترك وراءَه أولادَه الّذين هم أنفسُ ما لديه، وخاف عليهم من قوارع الدّهر.

وممّا زاد في أحزانه أنّه ترك ابنًا صغيرًا، كان من أحبّ أبنائه إلى قلبه، وإليه أشار بقوله[55]:

وصــــغيركم عبــد العزيــزِ فــإنَّني أطــوي لفرقتِــهِ جــوًى لــمْ يصــغُرِ
ذاكَ المُقــدّم فــي الفــؤادِ وإنْ غــدا كفــؤًا لكُــمْ فــي المُنتمــى والعُنصــرِ
إنَّ البَنـــانَ الخمــسَ أكفــاءٌ معًــا والحَلْــيُ دونَ جميعِهــا للخُنْصُــرِ
وإذا الفتــى فَقَـدَ الشـبابَ سَـما لــهُ حــبُّ البنــينِ، ولا كحُــبِّ الأصــغرِ

ومثلما أحسّ الجزيريُّ في سجنه بهمّ فراق الأبناء، أحسّ ابنُ حزم بالهمّ ذاتِه، وكانت وطأةُ الفتنة ثقيلةً عليه جدًّا، فقد قال يتشوّق إلى أهله[56]: (من البسيط)

يــا راحــلاً عنــدَ حــيّ عنــدَهُ رمقِــي اقــرا السّــلامَ علــى مَــنْ لَــمْ أُوَدِّعــهُ
وسَــلْهُ بــاللهِ عَــنْ عهــدِي أَيَحفظُــهُ؟ فعَهْـــــدُهُ بِمكـــــانٍ لا أُضَـــــيّعُهُ
وكيــفَ عَنّــي وعَــنْ أُنســي تَصَــبُّرُهُ أمْ كيــفَ بعــدَ بعــادِي عنْــهُ أَرْبُعُــهُ؟
وا طــولَ شَــوْقاهُ مــا جــدَّ البعــادُ بِهــمْ إلـــيهم مـــذْ ســعَوْا للبـــينِ أفظعُـــهُ
لَـــئِنْ تباعــدَ جُثمـــانِي فلــمْ أرَهُــمْ فعنــدَهُم – وَأَبيــكَ – الشَّــوقُ أجمعُــهُ

وتذكّر ابنُ حزم أطفالَه الّذين تركَهم خلفَه، فأثارت الذّكرى في نفسه الشّجونَ على البُعد عنهم، وطولَ السّهر بَعْدَهم، فقال[57]: (من البسيط)

ذِكــرى أُفيراخِــهِ مِــنْ كــلّ ناحيــةٍ تُــوحي إلــى القلــبِ أســرارًا تُقطِّعُــهُ
كــمْ قــدْ تَحمَّــلَ مِــنْ أعبــاءِ نــأيهم نِضــوًا نَبـا بلذيـذِ النّـوم مضـجَعُهُ[58]

– الصّمود في وجوه الحسّاد والشّامتين:

وتناول الشّعراءُ السّجناء في أشعارهم الحديثَ عن الحُسّاد والخصوم الّذين سعوا بهم عند أولي الأمر فأوقعوا بهم، لكنّ الحديثَ أخذَ شكل التّحذير والتّلويح لهم أنّ المصير الّذي لاقوه سوف يلاقونه هم أيضًا، وأنّ للأيّام يدًا طُولى تطال الجميعَ.

---

(54) الغِبّ: عاقبة الشّيء.

(55) الجزيريّ: قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريّ، ص48.

(56) ابن حزم: الدّيوان، ص71.

(57) ابن حزم: الدّيوان، ص69.

(58) النّضو: المهزول من الإبل وغيرها.

واتّهم الشّاعرُ عبدُ الملك بن إدريس الجزيريّ خصومَه، الّذين فرحوا بمصيره، بالظُّلم والجهل في حُكمهم عليه، وضرب لهم الأمثلةَ وبيّن لهم أنّ ما وقع له اختبارٌ وحسب، كما يفعل الصّيقلُ لاختبار سيفه بالنّار قبل صقله، فقال في استعطافه الحاجبَ المنصورَ[59]: (من البسيط)

قالوا جفاهُ ثلاثًا ثمّ غرّبَهُ فليسَ يرجو لديهِ حُظوةً أبدَا
جارُوا وما عدلُوا في القولِ بلْ حكمُوا على المقاديرِ جهلاً لا هُدوا رَشَدَا
ألَيسَ يوقدُ نصلَ السَّيفِ ضاربُهُ قبلَ الصِّقالِ مِرارًا جَمّةً عددَا؟
حتّى إذا ما سقى حَدَّيهِ ريُّهما واهتزَّ لدنًا دعاهُ الصّارمَ الفردَا

ومنهم مَنْ عدّ تجربةَ السّجن تجربةً متميّزةً لا تصيبُ إلاّ المتميّزين، ومع ذلك لا تنالُهم بأذًى وانكسار، إلاّ أن يخرجوا منها أقوى كالسّيف يُودع في جفنِه مدّةً، ثمّ يخرج بتّارًا عند النّزال. واقترب من هذا المعنى الشّريفُ الطّليق في قوله[60]: (من الطّويل)

فلا تُشمتُ الحُسّادَ شدّةُ حالتِي فإنّي جوادٌ لا يُشدُّ عنانُهُ
وما ألصقْتُ بالأرضِ خدّي إدالةً ولكنّني كالرّمح سُنَّ سنانُهُ

وقد تفاوتت مواقف الشّعراء في سجنهم بين الأمل والتّفاؤل في الحرّيّة من جديد، وبين اليأس والاستسلام للواقع المرير الّذي آلوا إليه، وكان للآملين بالحرّيّة متنفّسٌ في أشعار الاستعطاف والعتاب والاعتذار، الّتي أودعوها ما أمكنهم في سبيل الخلاص، مع ملاحظة التّفاوت بين الشّعراء في أشعارهم في التّذلّل والخضوع، أو المحافظة على العزّة والكبرياء.

فعلى نقيض الأمل والتّفاؤل المفعم في قلوب بعض السّجناء، فإنّ آخرين غيرهم ملّوا الاستعطاف وغرقوا في مهاوي اليأس والاستسلام، فالمُصحفيُّ الّذي رأيناه في استعطافه خاضعًا ذليلًا إلى أقصى الدّرجات، اصطدم بواقعه فيما بعد، إذ عفوُ المنصور عنه بات مستحيلًا، فوجدنا نبرتَه في الشّعر تتغيّرُ لتلائمَ الوضعَ النّفسيَّ الجديدَ الّذي ألمّ به، فقال يائسًا واصفًا مأساتَه ومحنتَه الشّديدةَ[61]: (من الطّويل)

صبرتُ على الأيّام لَمّا تولّتِ وألزمتُ نفسِي صبرَها فاستمرّتِ
فَوا عَجبًا للقلبِ كيفَ اعترافُهُ وللنّفسِ بعدَ العزّ كيفَ استذلّتِ؟!

(59) ابن الأبّار: إعتاب الكتّاب، ص194.
(60) الطّليق: ديوانه، ص85.
(61) مطمح الأنفس: ابن خاقان، ص156–157، وابن عذاري: البيان المغرب، 270/2.

وما النّفس إلاّ حيثُ يجعلُها الفتى فإنْ طمعتْ تاقتْ وإلاّ تسلّتِ
وكانتْ على الأيّام نفسِي عزيزةً فلمّا رأتْ صبرِي على الذّلّ ذلّتِ
فقلتُ لَها: يا نفسُ موتي كريمةً فقدْ كانتِ الدُّنيا لَنا ثُمَّ وَلّتِ

صوّر المصحفيُّ مأساتَه الشّديدةَ الّتي حلّت به، فأذلّته ومع ذلك صبرَ عليها متفائلًا، لكنّه ألفى ذلك من دون طائل فاختار الموتَ والاستسلامَ، وأكّد هذه الفكرةَ في أبياتٍ أخرى، إذ قال(62): (من الكامل)

لِيَ مدَّةٌ لا بدَّ أبلغُها فإذا انقضتْ أيّامُها متُّ
لَوْ قابَلَتْني الأُسْدُ ضارِيةً والمَوْتُ لَمْ يَدْنُ، لَما خِفْتُ
فَانْظُرْ إلَيَّ وَكُنْ عَلى حَذَرِ فبِمثلِ حالِكَ أمسِ قدْ كنتُ

ورأى ابنُ حزم في الله تعالى مفرّجَ الكروب وجامعَ القلوب، فقال(63): (من البسيط)

أقولُ والدَّهرُ قدْ غالتْ غوائلُهُ وحطَّ منِّي مكانًا كانَ يرفعُهُ
عسى لطائفُ مَنْ لا شيءَ يعجزُهُ تَحنو على شملِنا يومًا فتجمعُهُ

- الخاتمة ونتائج البحث:

وهكذا رأينا أنّ مأساة السّجن تجلّت في أشعار السُّجناء الشّعراء في مرحلتين من مراحل الدّولة الأمويّة في الأندلس، هما الحِجابة والفتنة، فقد عانوا من وطأة هذه المأساة وذاقوا مرارتها، ورسخت في وعي كلّ واحد منهم، فعبّروا عنها بوضوح من خلال صور فنّيّة دقيقة، بلغة معبّرة موحية.

وهذا يؤكّد أنّ الشّعر الأندلسيّ كان قادرًا على نقل تفصيلات الواقع الّذي عاشه الشّاعرُ الأندلسيُّ البارعُ في تطويع المادّة الشّعريّة لإمكاناته التّعبيريّة الخلّاقة، وفي تعريته أسبابَ المأساة وآثارها فيه، ودعوته إلى الاجتراء عليها، بوصفها محظوراتٍ تعمل على تقزيم الإنسان وقهره، وعلى منعه أخذَ دورِه الصّحيح في الحياة.

وممّا تقدّم يمكن استخلاصُ ما يأتي:

(62) ابن بسّام: الذّخيرة، ق4، م1، ص70.
(63) ابن حزم: الدّيوان، ص71.

1- انعكست الحياة السّياسيّة المضطربة في عهدي الحجابة والفتنة البربرية على حياة الشّعراء، وأثّرت فيهم فلقوا منها الذّلّ والهوان في السّجون الّتي أُودعوا فيها لعدد من الأسباب.

2- كَثُرُ عددُ الشّعراء السُّجناء في مرحلتي الحِجابة ولا سيّما عهد المنصور، ومرحلة الفتنة، وهذا مؤشّر إلى استبداد الحاجب في المرحلة الأولى واضطراب أوضاع البلاد في المرحلة الثّانية.

3- تعدّدت الأسباب الّتي كانت ذرائعَ لإيداع هؤلاء الشّعراء في السّجون، ومنها ما كان واهيًا، ولم يكن إلاّ تصفيةً للخصوم والمُناوئين.

المصادر والمراجع

- **ابن الأبّار** محمّد بن عبد الله (ت658هـ)، 1961م- **إعتاب الكتّاب**. تحقيق صالح الأشتر، الطّبعة الأولى، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق.
- **ابن الأبّار** محمّد بن عبد الله (ت658هـ)، 1963م- **الحلّة السّيراء في أشعار الأمراء**. تحقيق حسين مؤنس، الطّبعة الأولى، الشّركة العربيّة للطّباعة والنّشر، القاهرة.
- **ابن بسّام الشّنتريني** عليّ (ت542هـ)، 1997م- **الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**. تحقيق إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت.
- **الجزيريّ** عبد الملك بن إدريس (ت394هـ)، 1994م- **قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريّ**. تحقيق هلال ناجي، الطّبعة الأولى، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت.
- **ابن حزم** عليّ بن أحمد (ت456هـ)، 1410هـ/1990م- **ديوان الإمام ابن حزم الظّاهريّ**. جمع وتحقيق ودراسة صبحي رشاد عبد الكريم، الطّبعة الأولى، دار الصّحابة للتّراث، طنطا.
- **الحمويّ** ياقوت بن عبد الله (ت626هـ)، 1397هـ/1977م- **معجم البلدان**. دار صادر، بيروت.
- **الحميديّ** محمّد بن فتّوح (ت488هـ)، 1983م- **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**. تحقيق إبراهيم الأبياريّ، الطّبعة الثّانية، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت.
- **ابن خاقان** الفتح (ت529هـ)، 1983م- **مطمح الأنفس ومسرح التّأنّس في مُلح أهل الأندلس**. تحقيق محمّد عليّ الشّوابكة، الطّبعة الأولى، مؤسّسة الرّسالة، بيروت.
- **الخطيب** رشا عبد الله، 1999م- **تجربة السّجن في الشّعر الأندلسيّ**. الطّبعة الأولى، المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي.
- **الرّماديّ** يوسف بن هارون (ت403هـ)، 1400هـ/1980م- **شعر الرّماديّ**. جمع وتحقيق ماهر جرّار، الطّبعة الأولى، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت.
- **ابن سعيد** عليّ (ت685هـ)، **المغرب في حُلى المغرب**. تحقيق شوقي ضيف، الطّبعة الرّابعة، دار المعارف، مصر.

- **ابن شُهيد** أحمد بن عبد الملك (ت425هـ)، 1417هـ/1997م- **ديوان ابن شُهيد الأندلسيّ ورسائله.** جمعه وحقّقه وشرحه محيي الدّين ديب، الطّبعة الأولى، المكتبة العصريّة، صيدا وبيروت.
- **الضبّيّ** أحمد بن يحيى (ت599هـ)، 1410هـ/1989م- **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس.** تحقيق إبراهيم الأبياريّ، الطّبعة الأولى، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، ودار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت.
- **عبّاس** إحسان، 1969م- **تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر سيادة قرطبة.** الطّبعة الثّانية، دار الثّقافة، بيروت.
- **ابن عذاري المراكشي** (ق8هـ)، 1983م- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.** تحقيق ج.س.كولان، وإ.ليفي بروفنسال، وإحسان عبّاس، الطّبعة الثّالثة، دار الثّقافة، بيروت.
- **غومس** إميليو غرسية، 1978م- **مع شعراء الأندلس والمتنبّي.** تعريب الطّاهر أحمد مكّي، الطّبعة الثّانية دار المعارف، القاهرة.
- **الفيروزآباديّ** محمّد بن يعقوب (ت817هـ)، 1416هـ/1996م- **القاموس المحيط.** تحقيق مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الخامسة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت.
- **كليب** سعد الدّين، 1989م- **القيم الجماليّة في الشّعر العربيّ الحديث.** رسالة دكتوراه، كلّيّة الآداب، جامعة حلب.
- **محمّد** محمّد سعيد، 2003م- **الشّعر في قرطبة من منتصف القرن الهجريّ الرّابع إلى منتصف القرن الخامس.** الطّبعة الأولى، المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي.

The Aesthetic Manifestations of the Tragedy in the Andalus Poetry in The Umayyad State (PRISON as an Example)

Dr. Qasim Al-Qahtani

Dep. of Arabic literature, Faculty of Arts and Humanists,
Al Furat University

ABSTRACT

This study aims at showing concept of tragedy in the Andalusian Poetry in The Umayyad State, through explication one of tragedies which The Andalusian Poet lived it, it is tragedy of prison.

It explains ability of the Andalusian Poet to make his poetry to express his emotions and senses, through explanation ability of the art reproduction the social problems, because The description aesthetic of the Tragedy uncovers horrible difference between tow worlds: freedom and prison.

So we confirm the effect of art in confrontation of the unjust Andalusian power in The Umayyad State.

Keywords: Tragedy, Prison, the Andalus Poetry, The Umayyad State.